أثر الاستثناء الوارد في الآيات المتعلقة باليوم الآخر بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم (دراسة لبعض الآيات – عرض ونقد)

إعداد

الدكتور رائد سعيد أحمد بني عبد الرحمن

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

جامعة القصيم – المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

لمسألة الاستثناء حضور واضح في كتب المفسرين والفرق المخالفة، وقد جاء هذا البحث ليسلط الضوء على مسألة في غاية الأهمية، ألا وهي الأثر المترتب على ورود الاستثناء في الآيات المتعلقة بالإيمان باليوم الآخر، وحتى لا يطول البحث فقد عرض الباحث لثلاث مسائل هي: أولها: الاستثناء الوارد في الآية التي تحدثت عن الشفاعة. ثانيها: الاستثناء الوارد في الآية التي تحدثت عن أبدية الجنة والنار. ثالثها: الاستثناء الوارد في الآية التي تحدثت عن حكم أطفال المشركين.

فبدأ الباحث التعريف بأهل السنة والجماعة ومخالفيهم، ثم عرض المواضع التي جاء فيها الاستثناء في القرآن الكريم فيما يتعلق باليوم الآخر، وعقد مقارنة بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم في هذه المسألة، وتبين من خلال الدراسة الأثر والخلاف الكبير الذي ترتب على مجيء الاستثناء بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم، كما تبين من خلال الدراسة موقف أهل السنة والجماعة في فهم الاستثناء الوارد في هذه المواضع والتي تشمل عدم خلود صاحب الكبيرة في نار جهنم، والقول بأبدية الجنة والنار، وأن أولاد المشركين يمتحنون يوم القيامة، وليس كما ذهبت الفرق المخالفة كالخوارج والجهمية والمعتزلة.

الكلمات الدلالية:

أثر، الاستثناء، الفرق، اليوم الآخر، أهل السنة، المعتزلة، الخوارج، الشفاعة، الكبيرة، الجنة، النار، أطفال المشركين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فالناظر في قضايا العقيدة التي وردت في كتاب الله – عز وجل– يجد أن تقرير هذه القضايا جاء بأساليب متنوعة، ومن هذه الأساليب أسلوب الاستثناء الوارد في كتاب الله تعالى. فعلى سبيل المثال استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب في باب الصفات لله – عز وجل –، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [1]. وجاء استخدام هذا الأسلوب في باب القدر كقوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[2]. وجاء استخدامه– أيضا – في باب الكفر والإيمان كقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [3]. فهذه النصوص القرآنية التي ورد فيها أسلوب الاستثناء في قضايا العقيدة، قد ترتب عليها خلاف كبير بين الفرق، وهذا البحث جاء ليتناول الآيات التي تحدثت عن الإيمان باليوم والآخر وأثر ورود الاستثناء فيه، بين أهل السنة الجماعة والفرق الأخرى كالمعتزلة والخوارج.

أهمية البحث:

إن المتأمل في نصوص القرآن الكريم يجد كثرة النصوص القرآنية التي استخدم فيها أسلوب الاستثناء في قضايا العقيدة، ولما يترتب على هذا الأسلوب من خلاف كبير بين أهل السنة والجماعة وبين مخالفيهم، جاء هذا البحث لدراسة قضية واحدة من القضايا العقدية

١. سورة القصص، ٨٨.
٢. سورة الكهف، ٢٤.
٣. سورة النحل، ١٠٦.

التي استخدم فيها أسلوب الاستثناء، ألا وهي ما يتعلق باليوم الآخر، وبيان الأثر المترتب على ذلك.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في تفرق المادة العلمية التي تتعلق بهذا الموضوع في كتب التفسير والعقيدة والفرق، وصعوبة الجمع بينها، كما أن هذا البحث يعالج قضية في غاية الأهمية وهو الأثر الذي يترتب على الاستثناء الوارد في الآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم كالمعتزلة والخوارج.

أسئلة البحث:

جاء البحث للإجابة عن الأسئلة والاستفسارات الآتية:

- هل هناك أثر لأسلوب الاستثناء في قضايا العقيدة بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم؟ وإن كان هناك أثر يترتب على هذا الاستثناء فما هو؟
- ما رأي أهل السنة والجماعة ومخالفيهم في الآيات العقدية المتعلقة باليوم الآخر والتي ورد فيها أسلوب الاستثناء؟
- ما الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة في هذا الموضوع؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى عدة أمور من أهمها:

- المساهمة المتواضعة في رفد الدراسات العقدية والفرق الإسلامية في هذا الموضوع.
- التعرف على الآيات التي ورد فيها الاستثناء فيما يتعلق باليوم الآخر.
- بيان أثر الاستثناء الوارد في الآيات التي تحدثت عن اليوم الآخر.
- التعرف على الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة في هذا الباب.

الدراسات السابقة.

بعد البحث في المكتبة الإسلامية وجدت عددا من الدراسات التي تتحدث في هذا الموضوع من أهمها وأبرزها:

- زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، للدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، حيث جاء هذا الكتاب في ثلاثة أبواب. تكلم في الباب الأول عن قول أهل السنة والجماعة في القول بزيادة الإيمان ونقصانه، ثم تناول في الباب الثاني الحديث عن الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة، ثم تحدث في الباب الثالث عن حكم الاستثناء في الإيمان.
- موقف المعتزلة من شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم، للدكتور صالح الرقب حيث قارن الباحث في دراسته بين موقف أهل السنة والجماعة وموقف المعتزلة فيما يتعلق بالشفاعة.
- القصر بالأدوات في القرآن الكريم / دراسة إحصائية بلاغية تفسيرية، للباحث محمد الجبالي وأصل هذه الدراسة رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الملايا، حيث تناول الباحث في دراسته الاستثناء الوارد في الآيتين في سورة هود رقم (١٠٧-١٠٨).

والناظر في هذه الدراسات جميعا يجد أنها تختلف اختلافًا كبيرًا عن الدراسة التي سوف ندرسها؛ حيث سيقوم الباحث بدراسة الآيات التي ورد فيها الاستثناء في موضوع الإيمان باليوم الآخر، ثم عقد مقارنة بين الفرق الإسلامية في هذه المسألة والترجيح فيما بينها.

منهج البحث:

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يستخدم الباحث في بحثه المنهج الاستقرائي النقدي لجمع المادة العلمية، ثم دراستها من رؤية نقدية بما يتوافق مع الفهم الصحيح للآيات القرآنية، والذي يقوم على مايلي:

- حصر الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها الاستثناء فيما يتعلق باليوم الآخر من خلال المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

– تقسيم الآيات الكريمة الواردة في هذا الباب بما يتناسب مع الموضوع، بحيث تكون عناوين المباحث.

– الرجوع إلى أمهات التفاسير المختلفة، وأمهات كتب الفرق التي طرقت هذا الموضوع.

– تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية.

– مقارنة الآراء ومناقشتها والترجيح في ما بينها.

وقد جاء هذا البحث في مبحثين على النحو الآتي:

المبحث الأول: التعريف بالمصطلحات الواردة في البحث وفيه مطالب:

المطلب الأول: معنى الاستثناء وأنواعه وأدواته.

المطلب الثاني: التعريف بأهل السنة ومخالفيهم.

المبحث الثاني: أثر الاستثناء الوارد في الآيات المتعلقة باليوم الآخر وفيه مطالب:

- أثر الاستثناء الوارد في موضوع الشفاعة.
- أثر الاستثناء الوارد في موضوع أبدية الجنة والنار.
- أثر الاستثناء الوارد في موضوع أطفال المشركين.

التوصيات والنتائج:

وقد ذكرت أهم النتائج والتوصيات في ذيل البحث.

المبحث الأول: التعريف بالمصطلحات الواردة في البحث:

سوف نتناول في هذا المبحث التعريف بالمصطلحات الواردة في البحث، كالتعريف بمصطلح الاستثناء وأنواعه وأدواته، ثم نتناول التعريف بأهل السنة والجماعة ومخالفيهم.

المطلب الأول: معنى الاستثناء وأنواعه وأدواته.

الاستثناء هو: ((هو إخراج الثاني من الأول ب (إلاَّ) أو إحدى أخواتها وهي: غير، سوى، خلا، عدا، حاشا، ليس، لا يكونُ)) [1]. ومثال ذلك قولنا:حضر الأصدقاء إلا عليا. ومعنى الجملة أن جميع الأصدقاء قد حضروا إلا واحدا منهم وهو علي . وعلى هذا نقول: أن جملة الاستثناء تتكون من:

- المستثنى: وهو الاسم الذي يقع بعد أداة الاستثناء. وهنا في المثال السابق عليا.
- المستثنى منه: وهو الاسم الذي يقع قبل أداة الاستثناء. وهنا في المثال السابق الأصدقاء.
- أداة الاستثناء: إلا.

وأما أنواعه فينقسم الاستثناء عند أهله إلى خمسة أقسام هي [2]:

القسم الأول: الاستثناء التام الموجب وهو الاستثناء الذي لا يكون المستثنى منه مسبوقا بنفي أو شبهة.

القسم الثاني: الاستثناء التام المنفي وهو الاستثناء الذي يكون المستثنى منه مسبوقا بنفي أو شبهة.

القسم الثالث: الاستثناء المفرغ وهو الاستثناء الذي يخلو من ذكر المستثنى منه.

---

١. السراج، محمد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعه: خير الدين شمسي باشا، (دمشق: دار الفكر ، ط ١، ١٤٠٣ هـ)، ج١، ص ٩٨.

٢. المرجع نفسه، ج١، ص٩٩.

القسم الرابع: الاستثناء المتصل وهو الاستثناء الذي يكون المستثنى من جنس المستثنى منه.

القسم الخامس: الاستثناء المنقطع وهو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه.

وأما بالنسبة لأدوات الاستثناء، فيذكر النحويون أن أدوات الاستثناء تنقسم إلى ثماني أدوات، منها ما هو حرف، ومنها ما هو اسم، ومنها ما هو فعل، ومنها ما هو مشترك بين الفعل والحرف وبيان ذلك[١] :

الأول: منها حرف مثل ((إلا)).

الثاني: منها اسم مثل ((غير، سوى)).

الثالث: منها فعل مثل: ((ليس، لا يكون)).

الرابع: منها مشترك بين الفعل والحرف مثل: ((خلا وعدا وحاشا)).

المطلب الثاني: التعريف بأهل السنة ومخالفيهم.

يتردد مصطلح أهل السنة كثيرا في كتب العقائد. وكل طائفة أو فرقة تدعي أنها هي التي تمثل أهل السنة وعند إطلاق هذا المصطلح فإنه يراد به معنيان [٢] :

الأول:المعنى العام لأهل السنة: والمقصود به جميع المنتسبين للإسلام عدا الرافضة.

الثاني: وهو المعنى الخاص: والمراد به من سار على نهج النبي صلى الله عليه وسلم معتمدا على الكتاب والسنة بعيدا عن البدع وعلى هذا يخرج منه الخوارج [٣] والجهمية والمرجئة [٤] وغيرهم.

١. الحنبلي، مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي، دليل الطالبين لكلام النحويين، (الكويت: إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية، ١٤٣٠ هـ)، ج١، ص٦٤.

٢. باعبدالله، محمد باكريم محمد، (د دار الراية، ط ١، ١٩٩٤م)، ص ٤٦.

٣. اختلف العلماء في تعريف الخوارج باعتبار موضوع التعريف ومن أشهرها تعريف الشهرستاني في الملل والنحل أن الخارجي كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه جماعة المسلمين في كل عصر. انظر الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، (مؤسسة الحلبي)، ج ١، ص ١١٤.

٤. هم فرقة تقول بتأخير العمل عن مسمى الإيمان، ويقولون لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة وهم على أصناف وهي: أقربهم إلى أهل السنة والجماعة ويقولون أن الإيمان هو التصديق باللسان والقلب معا، وأبعدهم أصحاب =

ويمكن إيجاز القول في تعريف أهل السنة بأنهم الذين تمسكوا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم قولا وعملا واعتقادا. وعلى هذا نستطيع تحديد معنى المخالف لأهل السنة بأنه كل من خالف أهل السنة والجماعة ممن ينتسب إلى الإسلام في أصل من أصول الدين [1]. ولا يعني ذلك أن أي مخالفة لأهل السنة والجماعة تعني الخروج من معنى أهل السنة.

المبحث الثاني: أثر الاستثناء الوارد في الآيات المتعلقة باليوم الآخر وفيه مطالب:

جاء هذا المبحث ليتناول الباحث فيه الحديث عن المواضع التي جاء فيها الاستثناء في الآيات المتعلقة باليوم الآخر، ثم دراسة هذه الآيات وبيان رأي أهل السنة والجماعة في هذه المسائل ومقارنتها مع الفرق الأخرى كالمعتزلة والخوارج، ومن ثم الترجيح فيما بينها وسوف يتناول الباحث كما أوضح سابقا مسائل ثلاث وهي: أولها: الاستثناء الوارد في الآية التي تحدثت عن الشفاعة. ثانيها: الاستثناء الوارد في الآية التي تحدثت عن أبدية الجنة والنار. ثالثها: الاستثناء الوارد في الآية التي تحدثت عن حكم أطفال المشركين.

المطلب الأول: أثر الاستثناء في الخلاف العقدي الوارد في موضوع الشفاعة:

قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾[2].

أما موضع الاستثناء في الآية الكريمة فقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾.

أداة الاستثناء الواردة في الآية الكريمة: إلا.

نوع الاستثناء الوارد في الآية الكريمة الاستثناء المفرغ.

=

الجهم بن صفوان الذين يقولون أن الإيمان بالقلب فقط، ومحمد بن كرام الذي يقول أن الإيمان باللسان فقط. انظر ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٨٩/٢. انظر للاستزادة أبي الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق: نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط ١، ٢٠٠٥ م، ١ / ١١٤.

١. العقل، ناصر عبد الكريم، دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص٣٢.

٢. سورة الأنبياء، آية رقم ٢٨.

يثبت أهل السنة والجماعة الشفاعة الواردة في كتاب الله – عز وجل – وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم بجميع أقسامها[١]، في حين تنكر المعتزلة والخوارج الشفاعة لأهل الكبائر من المسلمين، ويقولون بتخليدهم في النار،وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار: ((وجملة القول في ذلك، هو أنه لا خلاف بين الأمة في أن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ثابتة للأمة، وإنما الخلاف في أنها لمن؟ فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين))[٢].

أدلتهم:

يستدل المعتزلة فيما ذهبوا إليه بإنكار الشفاعة للعصاة من المسلمين بالآيات النافية للشفاعة ومن ذلك : قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾[٣]. فالمعتزلة فهموا من خلال هذه الآية أن الشفاعة لا تكون إلا للتائبين من المسلمين، ولا تكون للعصاة منهم وهذا مبني عندهم على أداة الاستثناء التي حصرت الشفاعة فيمن رضي الله عنه.وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار عند هذه الآية: ((الآية تدل على أن الشفاعة لا تكون إلا لمن كانت طرائقه مرضية، وأن الكافر والفاسق ليسا من أهلها)) [٤]. فالله سبحانه وتعالى حصر الشفاعة بأداة الاستثناء فيمن رضي عنه بفعله للطاعات، وابتعاده عن المعاصي. فهل هذا هو المفهوم الصحيح للآية الكريمة أم لا؟

ويمكن القول أن الذي دفع المعتزلة إلى مخالفتهم لأهل السنة والجماعة وإنكارهم

١. قسم الإمام الذهبي الشفاعة في كتابه إثبات الشفاعة إلى سبعة أقسام هي: فأولها: شفاعته الكبرى العامة في الخلائق، الخاصة به حين يرغب الخلق إليه، فيشفع في أهل الموقف ليقضى بينهم، وذلك هو المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون. الثانية: شفاعته إذ يسجد ويحمد ربه الثالثة: شفاعته في دخول سائر أهل الجنة الجنة الرابعة: شفاعته في من دخل النار من أهل الكبائر الخامسة: شفاعته في بعض أهل النار حتى يخفف من عذابه السادسة: شفاعته في قوم استوجبوا دخول النار بذنوبهم، فيشفع فيهم، فلا يدخلون النار ويدخلون الجنة. السابعة: يشفع في رفع درجات أقوام وزيادة نعيمهم. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، إثبات الشفاعة، ص ٢٠-٢٢.

٢. الهمذاني، القاضي عبدالجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: د عبد الكريم عثمان،(مكتبة وهبة: مصر، ط ١)، ص٦٨٨.

٣. سورة الأنبياء، آية رقم ٢٨.

٤. الهمذاني، القاضي عبدالجبار بن أحمد، متشابه القرآن، تحقيق: د عدنان محمد زرزور، (دار التراث: القاهرة).

الشفاعة ما يلي:

الشبهة الأولى: اعتقادهم أن مسألة الوعيد تتناول الفاسق ومرتكب الكبيرة، وإذا مات من غير توبة استحق الخلود في نار جهنم[١].

الشبهة الثانية: الفهم الخاطئ لنصوص الوعيد التي وردت في القرآن الكريم، وهذه النصوص كثيرة ومتعددة منها:

١ – قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢]، يقول القاضي عبد الجبار عند هذه الآية: ((فدل بذلك على أن من غلبت كبائره على طاعته – لأن هذا هو المعقول من الإحاطة في باب الخطايا؛ لأن ما سواه من الإحاطة التي تستعمل في الأجسام يستحيل فيها– هو من أهل النار مخلدًا فيه))[٣].

٢-قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾[٤]، وهذه الآية من الآيات التي استدل بها المعتزلة على خلود صاحب الكبيرة في النار، وبالتالي إنكار الشفاعة يقول القاضي عبد الجبار في متشابه القرآن عند هذه الآية: ((يدل على الوعيد والخلود، لأنه لم يخص مجرما من مجرم، وبين أنهم خالدون في النار، والخلود هو الدوام الذي لا انقطاع فيه))[٥].

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[٦]، وهذه الآية فهموا منها أن من عصى الله تعالى فإنه يستحق الخلود في نار جهنم، لأن العاصي عندهم اسم يتناول الفاسق والكافر على حد

١. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، ١/ ٤٥.
٢. سورة البقرة، آية رقم ٨١.
٣. القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني، متشابه القرآن ١ / ٩٧.
٤. سورة الزخرف، ٧٤-٧٥.
٥. القاضي عبدالجبار الهمذاني، متشابه القرآن، ٦٠٩/٢.
٦. سورة النساء، آية رقم ١٤.

سواء، لأن الله – عز وجل – لو أراد أحدهما دون الآخر لبن ذلك وأوضحه، وهذا كله مبني عندهم على أصل الوعد والوعيد[١].

المناقشة:

أولًا: لابد من بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[٢]، والمقصود بمن ارتضاه أي الموحدون، أي من قال: لا إله إلا الله، وهذا ما فسره ابن عباس –رضي الله عنهما– وفي هذا يقول الإمام الرازي عند هذه الآية: ((احتجت المعتزلة بقوله تعالى: ولا يشفعون إلا لمن ارتضى على أن الشفاعة في الآخرة لا تكون لأهل الكبائر، لأنه لا يقال في أهل الكبائر إن الله يرتضيهم. والجواب: قال ابن عباس –رضي الله عنهما– والضحاك: إلا لمن ارتضى، أي لمن قال: لا إله إلا الله، واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر وتقريره هو أن من قال: لا إله إلا الله، فقد ارتضاه تعالى في ذلك، ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه أنه ارتضاه الله؛ لأن المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه، وإذا ثبت أن الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضي الله عنهما))[٣].

فليس معنى الاستثناء الوارد في الآية بأن الشفاعة محصورة فيمن كانت طرائقه مرضية، إنما حصر الاستثناء الشفاعة في الموحدين أي من قال: لا إله إلا الله، والدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[٤]، والعهد كما قال بعض المفسرين هو الشهادة وفي هذا يقول الرازي: ((فظهر بهذا الحديث أن المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر

١. للاستزادة من شبهات المعتزلة وأدلتهم على خلود صاحب الكبيرة انظر القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، ٦٥٧،٦٥٩/١.

٢. سورة الأنبياء، آية رقم ٢٨.

٣. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين، مفاتيح الغيب ، (دار إحياء التراث العربي: بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ)، ص ١٣٥-١٣٦.

٤. سورة مريم، آية رقم ٨٧.

وجه دلالة الآية على أن الشفاعة لأهل الكبائر))[1]. وعلى هذا فقول المعتزلة بأن أداة الاستثناء حصرت الشفاعة فيمن كانت طرائقه مرضية قول بعيد عن الصحة، فأداة الاستثناء إنما حصرت الشفاعة في فئة الموحدين.

ثانيًا: لابد من الجمع بين الآيات التي تنفي الشفاعة وبين الآيات التي تثبتها، فالآيات القرآنية التي تنفي الشفاعة من المطلق المقيد، وتقييده يكون بآيات الشفاعة التي تثبت الشفاعة بشروطها؛ أما الآيات التي تنفي الشفاعة عن استحقاق الكافرين لها فتبقى على عمومها، وبهذا يكون الجمع بين الآيات النافية للشفاعة، وبين الآيات المثبتة لها.

ثالثًا: لابد عند دراسة مثل هذه الآيات معرفة العام والخاص، والمطلق والمقيد، فيحمل العام على الخاص والمطلق على المقيد، فالله تعالى في الآية التي استدلت بها المعتزلة على نفيها للشفاعة نفى الله تعالى الشفاعة مطلقا، ثم قيدها بمن ارتضى وفي هذا يقول ابن الوزير اليماني: ((فإنّ العموم والخصوص لا يتناقضان على القطع عند أحد من فرق الإسلام، بحيث يقطع على كذب أحدهما في نفس الأمر، ولو جحد ذلك أحد من أهل الجهل كان الرّدّ عليه مستهلًّا على أقل أهل المعارف الإسلامية بصيرة، وكيف يستطيع مسلم أن يشكّ في جواز ذلك، والقرآن مشحون بالعموم والخصوص، كما يعرف ذلك أهل التّمييز، دع أهل الخصوص: مثال ذلك قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [2]. فأطلق نفي الخلّة والشّفاعة في هذه الآية عن كلّ أحد، ثمّ قيّده في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [3]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [4]. فأثبت الخلّة والشّفاعة لمن اتّقى، ولمن ارتضى بعد أن نفاهما مطلقاً)) [5].

---

١. الرازي،مفاتيح الغيب، ج٢١، ص٥٦٦.

٢. سورة البقرة، ٢٥٤.

٣. سورة الزخرف، ٦٧.

٤. سورة الأنبياء، ٢٨.

٥. ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى،الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، تقديم: بكر أبو زيد، =

رابعا: إن نفي الشفاعة لابد أن يحمل على الكافرين المستحلين، وليس على العصاة من المسلمين ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [1]. وفي هذا يقول الآمدي: ((وأما إنكار الشفاعة للمذنبين والعصاة من المسلمين فذلك إنما هو فرع مذهب أهل الضلال في القول بوجوب الثواب ولزوم العقاب على الله تعالى وقد بينا ما في ذلك من الخلل وأوضحنا ما فيه من الزلل فإن الثواب من الله تعالى ليس إلا بفضله والعقاب ليس إلا بعدله وهو المتحكم بما يشاء في خلقه﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [2]، وما ذكروه من الآيات والظواهر السمعيات فمحمول على الكافرين المستحلين لما يأتونه المستوجبين لما يقترفونه دون العصاة من المؤمنين)) [3].

خامسًا: يقال في الجملة أن ما دفع المعتزلة إلى إنكار الشفاعة وحصرها في التائبين ونفيها عن العصاة التزامهم بأحد الأصول الخمسة الموجودة عندهم وهذا الأصل هو الوعد والوعيد. فالقول بالشفاعة للعصاة يخالف هذا الأصل وبناء عليه أنكروا الشفاعة. ويرد عليهم بأن أهل السنة والجماعة يثبتون نصوص الوعد والوعيد وبناء عليه فالذي يشملهم الوعيد ينقسمون إلى قسمين هما:

الأول: الكافر وهذا يستحق الخلود في نار جهنم كما صرحت بذلك الأدلة القرآنية.

الثاني: العصاة من المسلمين والعصاة إما أن يتوبوا إلى الله تعالى فلا يدخلون في نصوص الوعيد، وإما أن يموتوا بدون توبة فهؤلاء يقعون تحت المشيئة الإلهية إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم.

=

(دار عالم الفوائد)، ص٤٦٣.

١. سورة النساء، آية رقم ١١٦.

٢. سورة الأعراف، ٥٤.

٣. الآمدي، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، غاية المرام في علم الكلام، تحقيق: محمود حسن عبد اللطيف، ص٣٠٦.

بناء على ما سبق نستطيع القول بأن الاستثناء الوارد في الآية التي تتحدث عن نفي الشفاعة وحصرها فيمن رضي الله عنه، كان له أثره الواضح في الخلاف بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم كالمعتزلة.

المطلب الثاني: أثر الاستثناء الوارد في موضوع أبدية الجنة والنار:

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[1].

- موضع الاستثناء في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.
- أداة الاستثناء الواردة في الآية الكريمة: إلا.
- نوع الاستثناء الوارد في الآية الكريمة الاستثناء المفرغ.

وتعتبر هاتين الآيتين من الآيات التي كثر الكلام فيهما عند المفسرين بسبب الاستثناء الوارد فيهما، ولذلك ذكر الإمام السيوطي عند تفسير هاتين الآيتين ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما عن هاتين الآيتين: ((أنهما من المخبآت))[2]. وقال الآلوسي عند تفسير هاتين الآيتين: ((من المعضلات)) [3].

والناظر في موضوع الاستثناء في الآية الكريمة، يجد أنها تتعلق بموضوعين هما:

١. أبدية النار ودوامها.

٢. أبدية الجنة ودوامها.

ومن خلال النظر في كتب العلماء نجد أن مجمل أقوالهم في هذه المسألة هو[4]:

١. سورة هود، آية رقم١٠٦-١٠٨.

٢. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الدر المنثور،(دار الفكر: بيروت)، ج٤، ص ٤٧٥.

٣.الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبدالباري عطية، (دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤١٥هـ)، ج ٦،ص٣٣٩.

٤. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، (مطبعة المدني:

القول الأول: وهو قول الجهمية [١] المعطلة (الجهم بن صفوان) ومن وافقهم من المعتزلة كأبي الهذيل العلاف؛ حيث يقولون بفناء الجنة والنار، وأنهما غير أبديتين.

القول الثاني: أنهما باقيتان دائمتان لا تفنيان وهو قول أهل السنة والجماعة.

القول الثالث: أن الجنة باقية لا تفنى والنار فانية، وهذا القول منسوب لشيخ الإسلام ابن تيميه وابن قيم الجوزية.

أدلتهم.

استدل كل فريق في ما ذهب إليه بنفس الدليل وهو الآية القرآنية الكريمة التي ورد فيها الاستثناء، حيث اختلفوا في معنى الاستثناء الوارد في الآية الكريمة التي تكلمت عن هذه المسألة، وهي: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [٢] .وهذا دليل واضح على وجود الخلاف بين العلماء بسبب الاستثناء الوارد في الآية.

المناقشة.

إن الناظر في كتب التفسير عند هذه الآية يجد أقوالا كثيرة ومتعددة لمعنى الاستثناء الوارد في الآية الكريمة، ومن المفسرين الذين جمعوا أقوال العلماء في معنى الاستثناء الإمام الشوكاني حيث ذكر أحد عشر قولا في هذه المسألة يمكن إجمالها فيما يلي [٣] :

=

القاهرة)، ص ٣٦٤.

١. هي إحدى الفرق الكلامية التي تنتسب إلى الإسلام، وترجع في نسبتها إلى مؤسسها الجهم بن صفوان ويرتكز مذهبهم العقدي على مفاهيم خاطئة من أهمها: القول بأن الإيمان هو مجرد المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط، و تعطيل صفات الله تعالى، والقول بالجبر، والقول بفناء الجنة والنار، والقول بخلق القرآن. انظر الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي،، (دار الآفاق الجديدة، بيروت)، ط ٢، ١٩٩٧ م، ج١ / ١٩٩.انظر مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، ١/١١٤.

٢. سورة هود، ١٠٨.

٣. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، فتح القدير، (دار ابن كثير: دمشق، ط١، ١٤١٤هـ)، ٢ج، ص٥٩٥، ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ص ٣٤٥-٣٤٧.

القول الأول: أنه استثناء من قوله ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾، ومعنى ذلك كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك.

القول الثاني: أنه للعصاة من الموحدين، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار وعلى هذا يكون الاستثناء من (خالدين)، وتكون (ما) بمعنى من.

القول الثالث: أن الاستثناء من الشهيق والزفير الوارد في الآية، أي لهم فيها زفير وشهيق ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾من أنواع العذاب غير الشهيق والزفير.

القول الرابع: أنهم خالدون فيها مادامت السماوات والأرض، أي: لا يموتون إلا ما شاء ربك.

القول الخامس: أن إلا بمعنى سوى ومعنى ذلك، مادامت السماوات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك الخلود.

القول السادس: أن الاستثناء بمعنى المشيئة.

القول السابع: أن الاستثناء معناه من مقدار موقفهم للحساب.

القول الثامن: أن الاستثناء معناه خالدون فيها من زيادة النعيم لأهل الجنة، ومن زيادة العذاب لأهل النار.

القول التاسع: أن (إلا) بمعنى (الواو)، والمعنى وما شاء ربك من الزيادة.

القول العاشر: أن (إلا) بمعنى (الكاف)، والمعنى كما شاء ربك.

القول الحادي عشر: أن معنى الاستثناء هو على سبيل الاستثناء الذي ندب إليه الشارع.

ويرى الزمخشري– وهو من المعتزلة – في الكشاف: أن معنى الاستثناء هو الاستثناء من الخلود في نار جهنم، وكذلك الخلود في نعيم الجنة. فأهل النار لا يخلدون في عذاب النار فقط، بل يعذبون في أصناف من العذاب وبما هو أغلظ من الخلود في نار جهنم وهو سخط الله تعالى عليهم، وكذلك أهل الجنة لهم ما هو أكبر من نعيم الجنة وهو رضوان الله

تعالى. والذي يدل على ذلك ما قاله الله تعالى في نهاية الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].أي غير مقطوع. وهذا الرأي هو رأي المعتزلة الذين يقولون بأن فاعل الكبيرة خالد مخلد في نار جهنم، وقد بينا أدلة وشبه المعتزلة لقولهم هذا سابقا عند الحديث عن الشفاعة في المطلب الأول[2].

يتبين مما سبق: الخلاف الكبير بين العلماء في معنى الاستثناء الوارد في الآية الكريمة، وعلى الرغم مما سبق من أقوال العلماء في ذلك، فما يهمنا هو ما يترتب على هذا الخلاف بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم في موضوع أبدية الجنة والنار أو فنائهما بناء على خلافهم في معنى الاستثناء. والصحيح الذي عليه أهل السنة والجماعة القول بأبدية الجنة والنار، والأدلة على ذلك كثيرة ولكن نبدأ بذكر الأدلة على أبدية الجنة، ومن ثم الأدلة على أبدية النار:

أولًا: الأدلة على أبدية الجنة، والأدلة على أبدية الجنة كثيرة ومتعددة منها:

١. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[3].

٢.قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[4]، وهذه الآية دليل واضح على دوام الجنة وعدم انقطاعها بقوله: غير مجذوذ. أي: غير مقطوع، فجاءت هذه القرينة تدل على دوام الجنة لئلا يتوهم بعد ذكر المشيئة أن هناك انقطاعًا فذكر ذلك بدوامها وعدم انقطاعها.

٣.حديث أبو سعيد الخدري أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((يؤتى بالموت

١. سورة هود، آية رقم ١٠٨.

٢. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،(دار الكتاب العربي: بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ)، ج٢، ص٤٣٠.

٣. سورة آل عمران، ١٥.

٤. سورة هود، آية رقم ١٠٨.

كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت))[1]، فهذا الحديث دليل واضح على خلود أهل الجنة في الجنة، فكيف يخلدون أهل الجنة في الجنة إذا قلنا بفنائها؟.

ثانيا: الأدلة على أبدية النار:

والأدلة على أبدية النار كثيرة ومتعددة، منها:

١. قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [2]، والناظر في هذه الآية الكريمة يجد أن الآية أشارت إلى أن عذاب أهل النار دائم لا ينقطع.

٢. قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [3]. والآية الكريمة تتحدث عن أهل النار حيث نفى الله – عز وجل – أنهم خارجون منها وفي هذا يقول شيخ المفسرين: ((وفي هذه الآية الدلالة على تكذيب الله الزاعمين أن عذاب الله أهل النار من أهل الكفر منقض، وأنه إلى نهاية، ثم هو بعد ذلك فان. لأن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، ثم ختم الخبر عنهم بأنهم غير خارجين من النار، بغير استثناء منه وقتا دون وقت. فذلك إلى غير حد ولا نهاية))[4].

٣. حديث أبي سعيد الخدري الآنف الذكر الذي يخبر بخلود أهل الجنة وأهل النار على حد سواء.

مما سبق يتبين الخلاف الكبير بين العلماء في موضوع أبدية الجنة والنار، بناء على

١. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى وأنذرهم يوم الحسرة، (دار طوق النجاة: ط ١، ١٤٢٢هـ).

٢. سورة البقرة، ١٦٢.

٣. سورة البقرة، ١٦٧.

٤. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م)، ج٣، ص ٢٩٩.

الاستثناء الوارد في الآية الكريمة في سورة هود؛ أما بالنسبة لأبدية الجنة ففي نفس الآية دليل واضح على أبديتها بعد مجيء الاستثناء، وأما بالنسبة لأبدية النار فالله -عز وجل- ربط خلود أهل النار بدوام السماوات والأرض أي على التأبيد، والخطاب القرآني جاء بما تعارف عليه العرب وما هو شائع عندهم ذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف شيئًا بالدوام قالت: هذا دوام السماوات والأرض، بمعنى: إنه دائم أبدًا، فجاء الخطاب القرآني بما هو متعارف عندهم.

المطلب الثالث: أثر الاستثناء الوارد في موضوع أطفال المشركين:

- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1].

- موضع الاستثناء في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.
- أداة الاستثناء الواردة في الآية الكريمة: إلا.
- نوع الاستثناء الوارد في الآية الكريمة الاستثناء المفرغ.

تعتبر هذه الآية من الآيات التي اختلف فيها المفسرون، وسبب اختلافهم ورود الاستثناء الوارد في الآية الكريمة، ومدار الخلاف الذي انبثق بين العلماء من الاستثناء الوارد في الآية الكريمة. والسؤال الذي يطرح هو: ما حكم من مات من أولاد المشركين؟.

يذهب أهل السنة والجماعة إلى أن أطفال المشركين يمتحنون يوم القيامة، فيرسل الله إليهم رسولًا، وإلى كل من لم تبلغه الدعوة: فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار[2]، في حين ذهبت الأزارقة[3] من الخوارج أن أطفال المشركين مشركون[1] ورتبوا على ذلك

١. سورة نوح ٢٦-٢٧.

٢. أحكام أهل الذمة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري - شاكر بن توفيق العاروري، (رمادى للنشر – الدمام، ١٩٩٧) ج ٢، ص١١٣٧.

٣. فرقة من فرق الخوارج وهؤلاء أتباع نافع بن الأزرق الحنفي المكنى بأبي راشد ولم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عددا ولا أشد منهم شوكة و الذي جمعهم من الدين أشياء منها قولهم: بأن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون، ومن بدعهم أنهم =

أمورًا منها:

- حكموا على أطفال المشركين بأنهم حكم آباءهم المخالفين.
- استحلوا قتل أطفالهم.
- أن أطفال المشركين في النار.

أدلتهم:

واستدل الأزارقة من الخوارج على قولهم هذا بقول الله تعالى على لسان نوح -عليه السلام﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [٢]. ووجه الدلالة من الآية الكريمة أن نوحًا -عليه السلام- عندما دعا على قومه أخبر أن أولاد المشركين يولدون على الكفر، وبناء عليه هم في النار.

المناقشة:

وسوف نناقش الأزارقة في استدلالهم بالآية الكريمة التي استدلوا بها على قولهم في ما ذهبوا إليه بما يلي:

أولًا: أن نوحًا -عليه السلام- لم يدع على قومه إلا عندما يئس من قبولهم لدعوته، فعندما تيقن عدم استجابتهم إليه دعا عليهم، والذي يدل على ذلك ما جاء في الآية القرآنية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

=

أنكروا الرجم، واستحلوا كفر الأمانة، ولم يقيموا الحد على قاذف الرجل المحصن وإنما أقاموه على قاذف المحصنات من النساء، وقطعوا يد السارق في القليل والكثير، وقد تم محاربة الأزارقة عبر العصور حتى تم القضاء على زعيمهم نافع بن الأزرق ثم بايعت الأزارقة بعده عبيدالله بن مأمون التميمي. انظر الفرق بين الفرق، عبدالقاهر البغدادي، ٦٥/١.

١. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، (دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط ٢، ١٩٧٧م)، ج١، ص ٩٧. الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، (مكتبة الخانجي – القاهرة)، ج٤، ص ٦٠.

٢. سورة نوح ٢٦-٢٧.

يَفْعَلُونَ ﴾[١]، فنوح –عليه السلام – عرف ذلك من خلال النص الصريح والصحيح كما دلت عليه الآية الكريمة، فأطفال الكفار في الدنيا هم من الكفار، وفي هذا يقول ابن حزم الظاهري في الفصل: ((هذا كل ما احتجوا به ما يعلم لهم حجة غير هذا أصلًا، وكله لا حجة لهم فيه البتة أما قول نوح –عليه السلام– فلم يقل ذلك على كفار قومه خاصة؛ لأن الله تعالى قال له: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[٢]؛ فأيقن نوح – عليه السلام – بهذا الوحي أنه لا يحدث فيهم مؤمن أبدا، وإن كل من ولدوه إن ولدوه لم يكن إلا كافرًا ولا بد، وهذا هو نص الآية؛ لأنه تعالى حكي أنه قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٣]. وإنما أراد كفار وقته الذين كانوا على الأرض حينئذ فقط، ولو كان للأزارقة أدنى علم وفقه لعلموا أن هذا من كلام نوح –عليه السلام– ليس على كل كافر لكن على قوم نوح خاصة لأن إبراهيم ومحمدًا –صلى الله عليهما وسلم– كان أبواهما كافرين مشركين وقد ولدا خير الإنس والجن من المؤمنين وأكمل الناس إيمانًا))[٤].

ثانيًا: لابد أن نعرف أنه ليس المقصود من قول نوح –عليه السلام– في الآية القرآنية الكريمة عند قوله تعالى ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٥]، أي عند ولادتهم، لأن هذا يتعارض مع النصوص الصحيحة التي أخبرت بأن كل مولود يولد على الفطرة، لكن المقصود أن هؤلاء الأطفال إن عاشوا سيتربون على الكفر ويتأثرون بالبيئة التي يعيشون فيها تبعًا لآبائهم، وهذا ما دل عليه حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– حيث قال: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج

١. سورة هود، آية رقم ٣٦.
٢. سورة هود، آية رقم ٣٦.
٣. سورة نوح، آية رقم ٢٦.
٤. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، ج ٤، ص٦١.
٥. سورة نوح، ٢٧.

البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)) [1]، ثم قرأ أبو هريرة رضي الله في نهاية الحديث الشريف قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2].

ثالثا: إن نوحًا –عليه السلام– وصف قومه بما سيؤولون إليه، فبناء على خبرته السابقة عرف طباعهم وأسلوبهم، فجاء خطابه بناء على معرفته السابقة. وهذا ما قاله الزمخشري في الكشاف: ((بم علم أن أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قلت: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه، ويقول: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، وقد أخبره الله – عزّ وجل – أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، ومعنى لا يلدوا إلا فاجرا كفارا لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر. فوصفهم بما يصيرون إليه)) [3]. وبذلك يكون نوح –عليه السلام– قد عرف ذلك من خلال الاستقراء، وفي هذا تنويه أن الزمخشري وهو من المعتزلة قد خالف رأي الأزارقة في هذه المسألة.وعند النظر في ما سبق نجد أن هذه المسألة من المسائل التي اختلف فيها العلماء كثيرًا، لكن ما يهمنا هو رأي أهل السنة والجماعة بالنسبة لهذه المسألة، وهل هم قد وافقوا غيرهم أم لا؟ وقد ذكرنا سابقا ما عليه أهل السنة والجماعة . وعند البحث نجد أن ابن قيم الجوزية قد ذكر في هذه المسألة ثمانية أقوال [4]:

الأول: الوقف فيهم، وترك الشهادة بأنهم في الجنة أو في النار، بل يوكل علمهم إلى الله تعالى، ويقال الله أعلم ما كانوا عاملين.

---

١. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢ هـ، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم ١٣٥٨.

٢. سورة الروم، آية رقم ٣٠.

٣.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، (دار الكتاب العربي: بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ)، ج٤، ص ٦٢١.

٤. طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، (دار السلفية: القاهرة، ط ٢، ١٣٩٤ هـ)، ج١، ص٣٨٧.

الثاني: أنهم في النار. وهذا قول جماعة من المتكلمين وأهل التفسير.

الثالث: أنهم في الجنة، وهذا قول طائفة من المفسرين والمتكلمين وغيرهم.

الرابع: أنهم في منزلة بين المنزلتين بين الجنة والنار.

الخامس: أنهم تحت مشيئة الله تعالى، يجوز أن يعمهم بعذابه، وأن يعمهم برحمته، وأن يرحم بعضاً ويعذب بعضاً بمحض الإرادة والمشيئة.

السادس: أنهم خدم أهل الجنة ومماليكهم.

السابع: أن حكمهم حكم آبائهم في الدنيا والآخرة فلا يفردون عنهم بحكم في الدارين، فكما هم منهم في الدنيا فهم منهم في الآخرة.

الثامن: أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه أدخله النار وهذا ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية والبيهقي[١] وهو الذي نرجحه والله أعلم، والدليل على ذلك ما عرف عند المحدثين بحديث الامتحان الذي ورد بروايات متعددة منها: حديث الأسود بن سريع، عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: يعرض على لله الأصم الذي لا يسمع شيئًا، والأحمق، والهرم، ورجل مات في الفترة، فيقول الأصم: رب جاء الإسلام، وما أسمع شيئًا، ويقول الأحمق: رب جاء الإسلام، وما أعقل شيئًا، ويقول الذي مات في الفترة: رب ما أتاني لك من رسول، قال أبو بكر البزار: وذهب عني ما قال الرابع، قال: فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم تبارك وتعالى أدخلوا النار فو الذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا))[٢]، وحديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يؤتى بأربعة يوم القيامة بالمولود والمعتوه، ومن مات في الفترة وبالشيخ الفاني كلهم يتكلم بحجته، فيقول الله –تبارك وتعالى– لعنق من جهنم أحسبه، قال: ابرزي، فيقول لهم: إني كنت أبعث

١. انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، ١ /٣٩٨.

٢. مسند البزار المسمى بالبحر الزخار،أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، (مكتبة العلوم والحكم: المدينة المنورة)، ط ١، ٢٠٠٩م، رقم ٩٥٩٧، ١٧ /٧٠.وقد روى هذا الحديث الأمام أحمد في مسنده بطرق وروايات متعددة.

إلى عبادي رسلًا من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه، فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب أتدخلنا ها ومنها كنا نفرق؟ ومن كتبت له السعادة فيمضي فيقتحم فيها مسرعًا، قال: فيقول الله: قد عصيتموني، وأنتم لرسلي أشد تكذيبًا ومعصية، قال: فيدخل هؤلاء الجنة ويدخل هؤلاء النار))[1]، وحديث الامتحان لم يرد بطريق واحد صحيح بحيث يعتمد عليه، لكنه قد ورد بطرق متعددة يشد بعضها بعضًا.

١. مسند البزار،البزار، رقم ٧٥٩٤، ١٤ /١٠٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتزكو الأعمال الباقيات، والصلاة والسلام على نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

وفي نهاية هذا البحث فقد توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات:

أولًا: النتائج:

١. وجود خلاف كبير بين العلماء في الآيات العقدية الوارد فيها أسلوب الاستثناء.

٢. وجود أثر كبير يترتب على ورود الاستثناء في الآيات التي تحدثت عن اليوم الآخر.

٣. القول الراجح في الاستثناء الوارد فيما يتعلق بالشفاعة ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، وهو الموحدون الذين يقولون: لا إله إلا الله، وليس كما زعمت الخوارج والمعتزلة، وهذا يعني عدم خلود صاحب الكبيرة في نار جهنم، والدليل على ذلك ثبوت الشفاعة في كثير من الآيات القرآنية، وما استدل به المعتزلة على نفيهم للشفاعة وخلود صاحب الكبيرة في نار جهنم مبني عندهم على الفهم الخاطئ لنصوص الوعيد.

٤. القول الراجح في الاستثناء الوارد فيما يتعلق بأبدية الجنة والنار هو أبدية الجنة والنار وعدم فنائهما، وهذا هو رأي أهل السنة والجماعة، والدليل على ذلك الآيات القرآنية التي تحدثت عن أبدية الجنة والنار، والآية الكريمة التي استدل بها المعتزلة والخوارج على فناء النار تدل من خلال القرائن على أبدية الجنة والنار، وأن ما ذهب إليه الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة بفناء الجنة والنار غير صحيح.

٥. القول الراجح في الاستثناء الوارد فيما يتعلق بأطفال المشركين ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة بأنهم يمتحنون يوم القيامة، وليس كما ذهبت الأزارقة من الخوارج بأنهم في النار، لورود حديث الامتحان الذي يؤيد ذلك حيث جاء من عدة طرق يشد بعضها بعضا، غير أنه لا يوجد دليل صريح يؤكد ما ذهبت إليه الأزارقة من الخوارج أن أطفال المشركين في النار.

ثانيًا: التوصيات:

أولًا: عدم التسرع في نقل الأحكام الشرعية قبل دراستها دراسة متأنية من خلال الدليل الصحيح، والفهم الصحيح لها.

ثانيًا: الإيمان بوجود الخلاف في هذه المسائل وأنه قديم بين العلماء.

ثالثًا: عدم الإنكار على المخالف مادام متبعًا للدليل الصحيح.

رابعًا: احترام أبناء الإسلام بعضهم وعدم رمي المخالف بألفاظ ترمي للتبديع والتفسيق والتكفير.

والله ولي التوفيق والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١. ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى، الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، تقديم: بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد.

٢. ابن حزم الظاهري، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي،الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة، مكتبة الخانجي.

٣. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، (١٣٩٤هـ)، طريق الهجرتين وباب السعادتين، الطبعة الثانية، القاهرة، دار السلفية.

٤. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، (١٩٩٧م)، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري – شاكر بن توفيق العاروري، الدمام، رمادى للنشر.

٥. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين،حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، القاهرة، مطبعة المدني.

٦. الإسفراييني، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي، (١٩٩٧م)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، (الطبعة الثانية)، بيروت، دار الآفاق الجديدة.

٧. الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق، (٢٠٠٥م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: نعيم زرزور، (الطبعة الأولى)، المكتبة العصرية .

٨. الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني،(١٤١٥هـ)،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني تحقيق: علي عبد الباري عطية،(الطبعة الأولى)، بيروت، دار الكتب العلمية.

٩. الآمدي، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، غاية المرام في علم الكلام تحقيق: محمود حسن عبداللطيف.

١٠. با عبدالله، محمد باكريم محمد، (١٩٩٤م)، وسطية أهل السنة بين الفرق، (الطبعة الأولى)، دار الراية.

١١. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، (١٤٢٢هـ)، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير ناصر الناصر، (الطبعة الأولى)، دار طوق النجاة.

١٢. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله البزار، (٢٠٠٩م)، البحر الزخار، (الطبعة الأولى)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

١٣. الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (٢٠٠٠م)، إثبات الشفاعة، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، (الطبعة الأولى).

١٤. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين، (١٤٢٠هـ)، مفاتيح الغيب، (الطبعة الثالثة)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

١٥. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (**١٤٠٧هـ**)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (الطبعة الثالثة)، بيروت، دار الكتاب العربي.

١٦. السراج، محمد علي السَّراج، (١٤٠٣هـ)، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعه: خير الدين شمسي باشا، (الطبعة الأولى)، دمشق، دار الفكر.

١٧. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، الدر المنثور، بيروت، دار الفكر.

١٨. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد ،الملل والنحل، مؤسسة الحلبي.

١٩. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، (١٤١٤هـ)، فتح القدير، (الطبعة الأولى)، دمشق، دار ابن كثير.

٢٠. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، جامع البيان في تأويل القرآن، (٢٠٠٠م)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

٢١. عواجي، غالب بن علي، (٢٠٠١م)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، جدة، المكتبة العصرية.

٢٢. المقدسي، مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي، (١٤٣٠هـ)، دليل الطالبين لكلام النحويين، الكويت، إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية.

٢٣. الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: د عبدالكريم عثمان، (الطبعة الأولى)، مصر، مكتبة وهبة.

الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، متشابه القرآن، تحقيق: د عدنان محمد زرزور، القاهرة، دار التراث.